

علاقة السلطة البايليكية الجزائرية بالجنوب الصحراوي

الأغواط أنموذجا من خلال رحلة ابن هطال التلمساني

The Algerian Beylical Authority's Relationship with Sahara. Al-Aghwât as a Case Study through the Journey of Ibn Haṭṭâl al-Tilimsânî

شارف رقية*

المدرسة العليا للأساتذة طالب عبد الرحمن، الأغواط

البريد الإلكتروني: Charrekia@yahoo.fr

ملخص:

لدراسة علاقة السلطة البايليكية الجزائرية بالجنوب الصحراوي، اخترنا الأغواط ورحلة ابن هطال التلمساني كنموذج، وذلك لما تضمنته الرحلة من معلومات متنوعة: جغرافية، واقتصادية، وعسكرية، وسياسية وإدارية واجتماعية. يمكن أن تشكل مادة مصدريّة خام خاصة للمؤرخ وعالم الاجتماع وللأنثروبولوجي وكذلك لنوعية قائدها الباي محمد الكبير بن عثمان، فاتح وهران سنة 1792، ولكاتبها أبو العباس أحمد بن هطال التلمساني (ت. سنة 1804)، والذي كان مستشارا وكاتباً ودبلوماسياً ومحارباً. ورغم معاصرته لثلاثة بايات من بايات الغرب الجزائري: محمد باي الكبير، وابنه عثمان، والباي مصطفى بن عبد الله العجمي، إلا أن اسمه اقترن بالباي محمد الكبير من خلال هذه الرحلة التاريخية، التي هي في الحقيقة رحلة عسكرية بالدرجة الأولى، إذ أعدت وجهزت لإخضاع المناطق الممتنعة ولجباية الضرائب، وكان منطلقها مدينة معسكر وصولاً إلى مدينة الأغواط.

تؤرخ هذه الرحلة التي قيدها ابن هطال نزولاً عند طلب الباي محمد الكبير لأوضاع الجزائر في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر، ولموضوع علاقة السلطة المركزية لبايالك الغرب بالمناطق الجنوبية، ولطبيعة الحكم ونوع الإدارة؛ وعلى هذا الأساس يمكن أن نطرح الإشكالية الأساسية لموضوعنا كالتالي:

* المؤلفة المرسلة

لماذا هذه الرحلة في ذلك الوقت بالذات؟ وما كانت أهدافها؟ وما قيمتها التاريخية؟ ويمكن أن تتفرع هذه الإشكالية إلى عدة تساؤلات منها: ما هي طبيعة العلاقة بين السلطة المركزية والمناطق الجنوبية من خلال رحلة ابن هطال التلمساني؟ إلى أي حد تمكن باي الغرب من إخضاع مناطق الجنوب، وخاصة الأغواط؟ هل عدم إخضاع منطقة الأغواط ناجم عن عجز في الإدارة المركزية وتراجع سلطتها؟ أم لطبيعة المنطقة؟ نجد ضمن مضان هذه المرحلة إجابات لمثل هذه التساؤلات وغيرها، لما ذكر فيها من طريق سير الرحلة، وظروفها ومنابع المياه، وحجم الصعوبات، والعمليات التجارية أثناء الرحلة، وظروف وحيثيات حصار مدينة الأغواط، ونتائج الرحلة... إلخ.

الكلمات المفتاحية:

رحلة؛ ابن هطال؛ محمد باي الكبير؛ السلطة البايلىكية؛ الأغواط؛ الضريبة؛ المناطق الصحراوية.

Abstract:

For the study of relations between the Algerian beylical authorities and the Saharan South, we have chosen the case of Al-Aghwât, through the *Rihla* of Ibn Haṭṭâl al-Tilimsânî. And this for its wealth of geographical, economic, military, political, administrative and social information for use by the historian, sociologist and anthropologist.

The *Rihla* is also a valuable mine on the life of the Bey Muhammad Ibn ‘Uthmân al-Kabîr, who liberated Oran in 1792, and on its author, Abû al-‘Abbâs Ahmad Ibn Haṭṭâl al-Tilimsânî, who died in 1804, and who was an adviser, writer, diplomat and fighter.

Although he lived at the time of three successive beys of western Algeria: Muhammad Bey al-Kabîr, his son ‘Uthmân, and al-Bey Mustafâ b. ‘Abdullâh al-‘Ajamî, his name was associated with the Bey Muhammad b. ‘Uthmân because of this *Rihla*, which was, in reality, a military mission to assert beylical authority while collecting taxes, from Mascara to Laghouat.

The *Rihla*, reported by Ibn Haṭṭâl at the request of the bey Muhammad al-Kabîr, refers to the situation in Algeria at the end of the 18th century and the beginning of the 19th century; it sheds light on the relationship between the beylical authority in the West and the

Saharan regions, and on the nature of governance and the type of administration that applied there.

Our problem is as follows: why this *Rihla* at this particular time? What were its aims and historical value? These questions imply others: what was the reality of relations between the beylical authority and the regions of the South through Ibn Haṭṭâl's journey? To what extent did the Bey of the West succeed in imposing his authority over the regions of the South, in particular the region of Al-Aghwât? Was the failure of this attempt due to a deficit in the beylical administration and the decline of its authority, or to the situation in the region of Al-Aghwât?

We hope that the *Rihla* will provide some answers to these questions.

Keywords :

Rihla; Ibn Haṭṭâl; Muhammad Bey al-Kabîr; Beylical authority; Al-Aghwât; Taxes; Saharan regions.

مقدمة:

1. التعريف بالمحقق محمد بن عبد الكريم:

لا نفصل في سيرة المحقق الجزائري محمد بن عبد الكريم هنا، لأنه يستحق ترجمة وافية كافية في مقال آخر، بل أردنا أن نسجل فضل هذا العالم الذي عاش في الفترة (2012/11/09-1924/04/28) في عمل التحقيق، حيث يعد تحقيق التراث عملا بالغ الأهمية في الدراسات التاريخية، طالما يهدف إلى بعث الأفكار وخدمة مصلحة وطنية وإنسانية في شكلها العلمي.

ويتطلب التحقيق مهارات عالية من صبر وإتقان، وإطلاع واسع في شتى العلوم والفنون. ويعد محمد بن عبد الكريم محقق "رحلة ابن هطال" من القامات الكبيرة في حقل التحقيق؛ وله الفضل كل الفضل في إخراج هذه الرحلة من كونها مخطوطا إلى كتاب مؤلف ينهل منه المؤرخين والكتاب... إلخ.

وقد قال عنه شيخ المؤرخين أبو القاسم سعد الله مُصَدِّر الرحلة: "فهو يبدي كثيراً من الاهتمام بالمخطوطات، ولا سيما التي تتناول حياة الجزائر عبر القرون الأربعة الماضية؛ فهو يد مخلصه، وقلم شريف، وقلب مليئة بحب الإنسان"¹.
 حقق محمد بن عبد الكريم على الأقل سبع مخطوطات منها: "اتحاف المنصفين..."
 لحمدان خوجة، و"وشاح الكتائب..." لقدور بن ورويلة، و"التحفة المرضية..." لابن ميمون، و"بهجة الناظر..." لعبد القادر المشرفي و"القول الأوسط..." لعبد الرحمان الشقراني وغيرها، أي أنه أولى اهتمامه خاصة بتراث الجزائر في العهد العثماني.
 وفعلاً وجدناه قد أخرج رحلة ابن هطال وحققها بكل ما يتطلبه عمل التحقيق من إخراج للأعلام والألقاب والكُتُب والأماكن والبلدان، ووضع مختلف الفهارس بدقة وفنية.

2. التعريف بالمؤلف أحمد بن هطال التلمساني: حياته:

هو أبو العباس الحاج أحمد بن محمد بن علي بن أحمد بن هطال التلمساني. لا تذكر المصادر تاريخ ميلاده، بما فيها محقق الرحلة محمد بن عبد الكريم؛ ولكن يحتمل أنه ولد في النصف الثاني من القرن الثامن عشر بناءً على أنه عاصر ثلاثة بايات من بايات الغرب الجزائري، وهم محمد باي الكبير بن عثمان الذي فتحت في عهده وهران سنة 1792، وابنه عثمان (1798-1802) والباي مصطفى بن عبد الله العجمي (1802-1805).
 يبدو أنه تلقى تنشئة دينية، وتعلّماً بسيطاً في فترة خصبة من تاريخ الجزائر، حيث قال عنه أبو القاسم سعد الله أنه شخصية هامة، ولكنها مغمورة في تاريخ الجزائر، فهو كان مستشاراً، وكاتباً، ودبلوماسياً ومحارباً².

¹ ابن هطال التلمساني (أحمد): رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تح.

محمد بن عبد الكريم، ط. 1، القاهرة، عالم الكتب، 1969، ص. 9.

² نفسه، ص. 10.

فباعثاره واحدا من رجال الباي محمد الكبير، كان بمثابة كاتب ومستشار له، كما كان موفده إلى سلطان المغرب الأقصى رفقة قاضي المحلة³ ابن سحنون الراشدي⁴، حيث حمل له الهدايا من أجل السماح للباي محمد الكبير بشراء ما يحتاجه من أسلحة وعتاد حربي، ضمن استعدادات فتح وهران عام 1792؛ وقد وفق في مسعاه ذلك، إذ عاد من جبل طارق بحمولة من البارود قدرت بقنطارين ونصف. وقد عبر الناسخ عن مكانة ابن هطال في جهاز حكم الباي بقوله: "لسان الدولة وفارس الجولة"⁵.

وفاته:

لما كان ابن هطال مشاركا في مقاومة الباي مصطفى بن عبد الله ضد ثورة الشريف الدرقاوي، استشهد في معركة فرطاسة بين وادي مينة⁶ ووادي العبد كما يشهد على ذلك مسلم بن عبد القادر⁷؛ وكان ذلك في أوائل ربيع الأول سنة 1219هـ/جوان 1804م.

إنتاجه (الرحلة):

عرف ابن هطال بتأليفه المعنون بـ"رحلة محمد باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي الجزائري"؛ ويبدو أن العنوان هو من وضع المحقق، وأول من نشره وترجمه للفرنسية المستشرق الفرنسي قرقوس (Gorguos)⁸.

³ المحلة: استعملت كلمة المحلة في العهد العثماني للدلالة على الفرقة العسكرية المكلفة بجمع الضرائب من الأرياف.

⁴ مؤلف كتاب الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني، أرخ فيه لأحداث فتح وهران الثاني التي عاشها وعاشها. أنظر: ابن سحنون الراشدي: *الثغر الجماني في ابتسام الثغر الوهراني*، تق. وت. المهدي البوعبدلي، قسنطينة، الجزائر، مطبعة البعث، 1973.

⁵ ابن هطال: المصدر السابق، ص. 34.

⁶ يبلغ طول وادي مينة 195 كلم، يمر بمدينة غليزان ويصيب بشمالها في الشلف، له فرع هو وادي العبد يجري نحو الشمال ليلتقي بوادي مينة عند قرية فرطاسة.

⁷ مسلم بن عبد القادر: *خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تاريخ بايات وهران المتأخرة*، تج. وت. رايح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1394هـ/1974م، ص. 75.

⁸ GORGUOS (A.) : « Expédition de Mohammed El-Kébir Bey de Mascara dans les contrées du Sud », in : *Revue africaine*, III, 1858, pp. 52-61, 185-192 & 286-295 ; IV, 1859/1860, pp. 347-357.

ووجد الأصل العربي مخطوطا في عدة نسخ، منها نسختان في المكتبة الوطنية الجزائرية تحمل الأولى رقم 1643، والثانية رقم 1644؛ وهذه الأخيرة هي لمحمد بن البشير بن محمد أفراي التلمساني، مؤرخة في يوم الخميس 29 ذي القعدة سنة 1202هـ/الأحد 3 أوت 1788م. وقد نشر محمد بن عبد الكريم الرحلة محققة على نسخ المكتبة الوطنية الجزائرية.

3. التعريف بالباي محمد الكبير (1778-1798):

شخصية جديرة بتبسيط الضوء عليها، تقلب في عدة مناصب وشهد تطورات كثيرة وساهم بقسط وافر في خلق تلك المناصب وتوجيه تلك التطورات. شغل منصب الباي واشترك في الحرب ضد الإسبان وقاد بنفسه حملة على الصحراء لإخضاع أهلها إلى سلطة البايلك وبالتالي إلى سلطة الداي، كما شجع العلماء والأدباء والطلبة وأقام المدارس والعمارات. إنه محمد بن عثمان الكردي، الذي كني بأبي عثمان وأبي علي وأبي محمد، وأبي الفتوحات، وأبي النصر وأبي المواهب وأبي الربيع.

لقبه الداي حسن باشا (1791-1798) بالكبير إكراما له عندما فتح مدينة وهران سنة 1792، كما لقب بالأكحل منذ صغره لسميته؛ وكذلك لقب بالمجاهد المنصور. أبوه هو أبو إسحاق الحاج عثمان بن إبراهيم الكردي، كان خليفة على مليانة، ثم ارتقى فأصبح بايا على التيطري؛ وقد كان باي التيطري محترما لدى الأتراك ومفضلا عند باشواتهم على سائر البايات، لأن التيطري أول ناحية خضعت للأتراك بعد مدينة الجزائر. توفي عثمان بمدينة معسكر، ودفن فيها سنة 1170هـ/1757م بعدما مكث في الحكم نحو تسعة أعوام.

كفل محمد وأخيه محمد الرقيق (بوكابوس) قائد مليانة أبو إسحاق إبراهيم الملياني، الذي كان صديقا لوالدهما. وزوج محمد الكبير بابنته؛ ولما ارتقى إبراهيم إلى حكم الأيالة الغربية، أخذ معه صهره محمد الكبير وعينه قائدا على قبيلته سنة 1178هـ/1765م، حيث كان لقائدها الأولوية في الأيالة الغربية مثلما لقائد مليانة الأولوية في الإيالة الجزائرية⁹، ثم عينه خليفة له سنة 1182هـ/1768م، حيث منحه إدارة جميع الناحية الشرقية من الأيالة الغربية.

⁹ ابن هطال: المصدر السابق، ص. 16.

شارك محمد الكبير في صد الحملة الإسبانية على مدينة الجزائر، حملة الكونت أوريلي 1189هـ/1775، فأجزل له الداوي محمد عثمان باشا (1766-1791) الشكر على دوره الفارق.

علما أنه لما توفي الباوي إبراهيم (1756-1771)، ولي الحاج خليل (1771-1778) بدلا من محمد الكبير؛ وبعد وفاة الباوي خليل، وهو متوجه لقمع معارضة درقاوة في مكان يقال له عين الحوت بالقرب من تيموشنت، عينه الداوي محمد عثمان باشا بايا على الأيالة الغربية، ففضى على ثورة درقاوة، وأخضع القبائل المتمردة على السلطة المركزية مثل قبيلة أولاد علي بن طلحة، وقبيلة الحشم، وقبيلة فليته، وحميان وعمور وجميع قبائل بني راشد.

وهكذا ملاً خزينته بما أدته له تلك القبائل من الضرائب والغرامات، كما أدخل بعضهم في المخزن، أي كقبائل موالية للسلطة؛ وأهم غزواته في دواخل البلاد هي غزوة الجنوب الصحراوي التي جهز لها جيشا عرمرما - كما سنفصل في ذلك لاحقا -؛ ولكن أهم حدث اشتهر به الباوي محمد الكبير هو فتح وتحرير مدينة وهران سنة 1792، والذي كتبت فيه عدة قصائد وتآليف¹⁰.

4. سير الرحلة ومضمونها:

ذكر ابن هطال سبب الحملة، وهو إخضاع المناطق الجنوبية لسلطة البايلك، حيث قال أنها لم تنلها أيادي السلطة، وهنا إقرار بعدم خضوعها، كما وصفها بالمرأة التي فرت من زوجها. وعموما جاءت الحملة لتعزيز قوة البايلك استعدادا لفتح وهران. وقد فصل في مكونات الحملة، حيث أتى على ذكر قوات الباوي بعد أن نوّه بحشمه وخدمه وابنه عثمان؛ كما أشار إلى تاريخ ومكان انطلاقها، وتفاصيل كثيرة عن سيرها. كان انطلاق الحملة أو الرحلة من معسكر بحكم كونها آنذاك مركز حكم بايلك الغرب، في يوم الخميس 9 ربيع الأول سنة 1199هـ/12 جانفي 1785م إلى غاية 28 ربيع الثاني سنة 1199هـ/11 فيفري 1785م؛ وتكون بذلك قد استغرقت حوالي شهر. ذكر

¹⁰ شارف (رقية): المصادر الجزائرية المعاصرة لفتح وهران الأول 1118هـ/1708م والثاني 1206هـ/1792م،

ط. 1، الجزائر، دار كوكب العلوم، 2021.

نقاط سيرها، وهو كما يبدو طريق منابع المياه، كذكره لواد الزلامطة ثم وادي العبد، ويصف مدينة البيضاء أنها كثيرة الماء وسهل تناوله والحصول عليه.

ذكر الصعوبات التي واجهت الحملة أثناء حصار مدينة الأغواط حيث قال: "هي مدينة عظيمة في نفسها محمية بأسوارها ورجالها لذلك لم يطمع أحد ممن كان قبله أي قبل الباي محمد الكبير فيها"¹¹. وأرجع صعوبة اقتحام المدينة إلى كثرة الأشجار بها، فلم ينفع الرصاص ولا المدافع، مما اضطرهم لاستعمال الفؤوس، كما ذكر ستين فردا ممن أصيب في هذه الحملة أسيرا منهم امرأة¹². وهذا رغم تحالف بعض الأعراب مع الباي مثل أولاد خليف، والأحرار الشراقة، ورغم دعمه ببعض الخيول، ودعمه أيضا بمكاتيب من داي الجزائر.

ففصل في كيفية الانتقال من مكان لآخر ميت يذكر المسافة بالساعات، وفي كيفية توزيع المؤونة على أعضاء الجيش (الشعير) والعلف للدواب كما كان يقسم عليهم الإبل. ولم يكن يتقدم لغزو منطقة، إلا بعدما يترك محلة في مكان سابق، مثل ذكره ترك محلة في معسكر دير الكاف حين أقدم على غزو منطقة العمور.

من الأماكن والمواقع التي يذكرها في الغرب والجنوب الغربي للجزائر، مدينة وهران، ومعسكر الذي يصف مسجدها الذي بناه محمد الباي الكبير، ومليانة وقصر أفلو، وقرية الشارف، وتاجموت، وعين ماضي وأم الضلوع، وموقع اللفيحة، وعين سيدي علي، وعين سيدي سليمان وقرية تاويالة التي يقول عنها أنها أكثر المناطق عمارة وأوسع مزارع وغناها بالقمح والشعير والرومان؛ كما يذكر طبيعة جبال المنطقة الملحية. ويشرح أسماء بعض الأماكن كقوله في اسم جبل راشد أنه الاسم القديم لجبل عمور.

فيما يخص بعض الخصوصيات الاجتماعية التي نقرأها من الرحلة ذكر ابن هطال للأوامر التي أصدرها الباي محمد الكبير فيما يخص معاملة المرأة، خاصة خلال الحملة احتراماً لحرفتها؛ وهذا نابع من العادات والتقاليد الإسلامية في مثل هذه الظروف، حيث قال: "وقد نبه سيدنا على أن المرأة لا يتعرض لها، ولا يؤخذ شيئا من ملابسها"¹³.

¹¹ ابن هطال: المصدر السابق، ص. 55.

¹² نفسه، ص. 60.

¹³ نفسه، ص. 47.

ومن طلبات الباي لزيادة عن المال والإبل كان العبيد والخدم، وهنا نسجل توضيحا، وهو أن العبيد الذين حصل عليهم الباي في هذه الحملة ليسوا من السكان المحليين بل يعتقد أنهم ممن تواجدوا في هذه المناطق كقوة مشكلة للمجتمع الجزائري في هذه الفترة؛ ولكن كانت تجلب في إطار الصفقات بين الدايات والمناطق المختلفة كالسودان الغربي مثلا. ومهما يكن فإنه من العادات والتقاليد التي كانت سائدة في المجتمع الجزائري هي أن الوصيف والأمة كانا جزءا من المجتمع يؤديان عدة خدمات في عدة مجالات بالنسبة للعبد كجنائي في الدور وحمال... إلخ. والأمة أو الوصيفة كانت ضمن قائمة شروط الصداق في الكثير من عقود الزواج.

في المجال الاقتصادي، تطرق ابن هطال لوسيلة التنقل المستخدمة في هذه الحملة وهي الجمال والأحصنة، ولصعوبة المسالك خاصة في ظل الظروف المناخية الصعبة التي صادفت العودة من الحملة، حيث تساقطت الثلوج بكثافة كما قد الخصائص الطبيعية والبشرية والاقتصادية للمناطق والقرى التي مرت عليها الحملة، خاصة المناطق الجنوبية، إذ ذكر منابع الماء والأودية في الغرب والجنوب الغربي للجزائر مثل وادي سيق ووادي الشلف، والسهول مثل سهول غريس، والبساتين الكثيفة التي تحيط بمدينة الأغواط، وهنا نقتبس ما وصف به المدينة: "إن هذه المدينة قد أحيطت بها البساتين والأبراج وبساتينها كلها مدورة (محاطة) بالسور، فحيطانها متراكمة وأسوارها متخالفة متكاثرة، ولو كان سور واحد لم يردنا أو اثنان أو ثلاثة لم يضرنا، ولكن أسوارها متشابكة بعضها خلف بعض، فلا بد أن تجمعوا خدامكم ومواليكم الذين لا سلاح لهم يحملون بأيديهم الفيسان ويذهبون مع العسكر"¹⁴. ومن جهة أخرى، صور المناطق خارج المدينة على أنها لا منفعة فيها وطاردة للسكان لأنها لا تصلح للزراعة. كما سجل عملية المبادلات التجارية خلال الرحلة، والتي تمت بين أهل تاجموت والمخازنية¹⁵، حيث باع المخازنية البقر والغنم مقابل البرانيس والحيات¹⁶.

رغم أن ابن هطال يصف التاريخ أنه من أهم العلوم وأكملها في قوله: "إن التاريخ من أجل العلوم قدرا وأكملها محاسنا وفخرا، به عرفت قدماء الأمم"، كما ينسب التاريخ

¹⁴ ابن هطال : المصدر السابق، ص. 56.

¹⁵ المخازنية هي قبائل المخزن، وهي قبائل متحالفة مع السلطة وتشارك في الحملات على المناطق الممتنعة.

¹⁶ استعمل هنا ابن هطال لفظ "باع"، لكن يبدو أن غالب العمليات التجارية التي تمت كانت بالمقايضة.

للعالم والأديب على حد سواء في قوله: "اشتغلت به علماء كل قطر وصنفت فيه أدباء كل عصر"¹⁷. رغم هذا الوعي بالتاريخ، إلا أن ما كتبه لا يخرج عن الطريقة التقليدية، تقييداً لأحداث عاشها وعاشها؛ اعتمد على سرد الوقائع وذكر الأحداث دون تحليل، ولا تحليل؛ وهذا راجع لثقافة المؤلف المحدودة؛ كما كتب بأسلوب يغلب عليه الثقافة الدينية أكثر من كونها أدبية؛ إلى جانب كثرة الأسجاع الركيكة، والتي يتكلف في الاتيان بها، مما يؤثر سلباً على المعنى؛ وكثيراً ما يسوق الألفاظ العامية والإقليمية. ولم يرتب الأحداث حسب فصول وأبواب؛ وهذا راجع لتقييد الرحلة أثناء سفره، حيث قال: "لأنني قيدت هذه الأوراق أثناء السفر ولم تصحبني كتب أستعين بها"¹⁸.

5. تقييم الرحلة:

يمكن استخلاص عدة قيم تاريخية من رحلة ابن هطال التلمساني، نلخصها فيما يلي:

- يمثل أحمد بن هطال السلطة العثمانية وهو متعامل معها، وداعم لها وبالدرجة الأولى سلطة بايلك الغرب الجزائري.
- الرحلة هي سيرة ذاتية لأحد أهم بايات الغرب الجزائري وهو محمد الباي الكبير حيث أورد ابن هطال قصيدتين للحاج أحمد بن السيد بن علال القرومي¹⁹؛ وهي ترجمة وإضافة لما كتبه سابقوه حول الباي محمد الكبير وتدرجه في المناصب وأهم إنجازاته²⁰.
- يعطينا ابن هطال فكرة عن المنهج السياسي الذي انتهجه الحكام تجاه الخارجين عن الحكم والمتمردين على الأوضاع آنذاك أي علاقة السلطة بالرعية، حيث يعطى لهذه الرحلة الصفة الرسمية لكونها بقيادة الباي نفسه ولكون غايتها إخضاع تلك المناطق للنظام الجبائي، في وقت أضحت الضرائب المورد الأساسي لخزينة البايلك ومنه لخزينة الدولة.
- تعطينا الرحلة معلومات كثيرة ومتنوعة، نقرأ من خلالها الصراعات بين بعض المناطق، وحجم الغنائم وأنواعها وانطباعات عن البايلك كأكبر وحدة إدارية وكثرة مشاكله في هذه الفترة، واختلال تنظيمه عما كان عليه من قبل.

¹⁷ نفسه، ص. 37.

¹⁸ ابن هطال : المصدر السابق، ص. 72.

¹⁹ قرومة هي الاسم القديم للأخضرية اليوم التابعة لولاية البويرة.

²⁰ نفسه، ص ص. 83-85.

- يخبرنا ابن هطال عن فشل باي التيطري في إخضاع مناطق الجنوب لسلطة البايك؛ وهذا ما جعلنا تسجيل عدم خضوع كل المناطق وكل القبائل للسلطة المركزية بل كان بعضها يتمتع بنوع من الاستقلالية وهذا ما يفسر ازدواجية التنظيم الإداري في العهد العثماني في الجزائر: تنظيم مركزي مقتبس من التنظيمات سائدة في الدولة العثمانية، وتنظيم محلي أساسه القبيلة والعرش والدوار وشيخ القبيلة ومجلسها ونظام الجماعة... إلخ، حيث انقسم بايالك التيطري، ومقره المديّة إلى أربع قيادات، وهي: قيادات التل القبلي، وفيه عدة قبائل؛ وقيادات التل الظهراوي وفي سبعة أوطان؛ وقيادات الديرة، وفيها عدة قبائل؛ وقيادات الجنوب، وتشمل: رحمان، الزناخرة، أولاد مختار أولاد سيدي عيسى، أولاد نايل... إلخ. وما يلاحظ أنه ليست كل تلك القبائل خاضعة لسلطة البايك²¹.

خاتمة:

نصل في خاتمة هذا المقال إلى تسجيل بعض الاستنتاجات والتأكيد على بعض الأفكار، وهي كما يلي:

- لم تتمكن السلطة المركزية من إخضاع بعض المناطق الجنوبية مثل منطقة الأغواط، وهذا راجع لعدة عوامل أهمها شساعة مساحة الجزائر حيث تبعد الأغواط 400 كلم عن مدينة الجزائر مقر الحكم، وتبعد بـ 300 كلم عن عاصمة التيطري المديّة، كما يرجع ذلك إلى تلك الاضطرابات التي كان يشهدها بايالك الغرب، والضعف الذي كان عليه بايالك التيطري بالمقارنة مع باقي البياليك.

- ضعف بايالك التيطري راجع لتضييق السلطة المركزية على باياته ومنحهم صلاحيات محدودة وبقائه دائما تحت مراقبة دار السلطان تحسبا لأي تمرد الذي قد يشكل خطرا على السلطة المركزية مباشرة.

- عدم إخضاع بعض المناطق الداخلية يرجع أيضا إلى اهتمام السلطة المركزية بقضايا الدفاع عن الواجهة البحرية التي لم تكن هي الأخرى مستقرة طيلة الفترة العثمانية في إطار صد الحملات الأوروبية على الجزائر.

²¹ AUCAPITAINE (Henri) et FERDERMAN (Henri) : « Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri », in : R.A., 1865, p. 282.

- نقرأ من خلال رحلة ابن هطال أن الباي يمثل السلطة المركزية ووسيلة من وسائل فرض السلطة والإخضاع وجباية الضرائب حيث يساعده في أداء مهامه مجموعة من الموظفين المحليين يتكون منهم ديوان البايلك، هذا الأخير الذي هو صورة مصغرة لديوان الداى بدار السلطان من حيث تنظيماته الإدارية وصلاحياته المالية، واختصاصاته الاقتصادية والاجتماعية.

- الباي غالبا ما يكون مقربا من بعض الموظفين الكبار ويحظى بسمعة في مجلس الديوان، ويمتاز الباي عادة بامتلاك سلطات مطلقة ضمن حدود البايلك الترابية بتفويض من الداى، وعليه بالمقابل أن يلتزم بالحضور إلى دار السلطان مرة كل ثلاث سنوات لتقديم فروض الطاعة والهدايا والدنوش، وهذا ما قد يشفع له عند الداى بحيث يمدد له عهده أكثر من ثلاث سنوات.

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربية:

- بن عبد القادر (مسلم): خاتمة أنيس الغريب والمسافر، تاريخ بايات وهران المتأخرة، تج. وتق. راجح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1394هـ/1974م.
- بن هطال التلمساني (أحمد): رحلة محمد الكبير باي الغرب الجزائري إلى الجنوب الصحراوي، تج. محمد بن عبد الكريم، ط. 1، عالم الكتب، القاهرة، 1969.
- ابن سحنون الراشدي: الثغر الجمانى في ابتسام الثغر الوهراني، تق. وتج. المهدي البوعبدلي، مطبعة البعث، قسنطينة، الجزائر، 1973.
- شارف (رقية): المصادر الجزائرية المعاصرة لفتح وهران الأول 1118هـ/1708م والثاني 1206هـ/1792م، ط. 1، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2021.

باللغة الأجنبية:

- AUCAPITAINE (Henri) et FERDERMAN (Henri) : « Notices sur l'histoire et l'administration du beylik de Titeri », in : R. A, 1865, pp. 280-302.
- GORGUOS (A.) : « expédition de Mohammed El kebir bey de Mascara dans les contrées du sud », in : R.A, 1858, pp. 52-61, 185-192 & 286-295 et 1859-1860, pp. 347-357.